

لن أقبع خلف الأسوار

صعدت ظهر الباخرة، يهب نسيم خفيف،
أحكمت شد خماري حول عنقي، تتراءى
طنجة من بعيد شامخة على الروابي، والموج
يداعب أطرافها، يهفو قلبي إليها، يسبقني
ليحتضن مآذنها السماء، أستنشق النسيم
ورائحة البحر، وعبق طنجة الأخاذ ملء رنتي،
انشرح صدري، وانساب على خدي دمعة
حري، يمتزج فيها الحنين بالفرح والحزن،
أرشفها، أتجرعها رغم ملوححتها.. وأمعن النظر
في طنجة، لم أكن أخالها بهذه العزة والجمال
والدفء، وقد زانتها المآذن البيضاء..

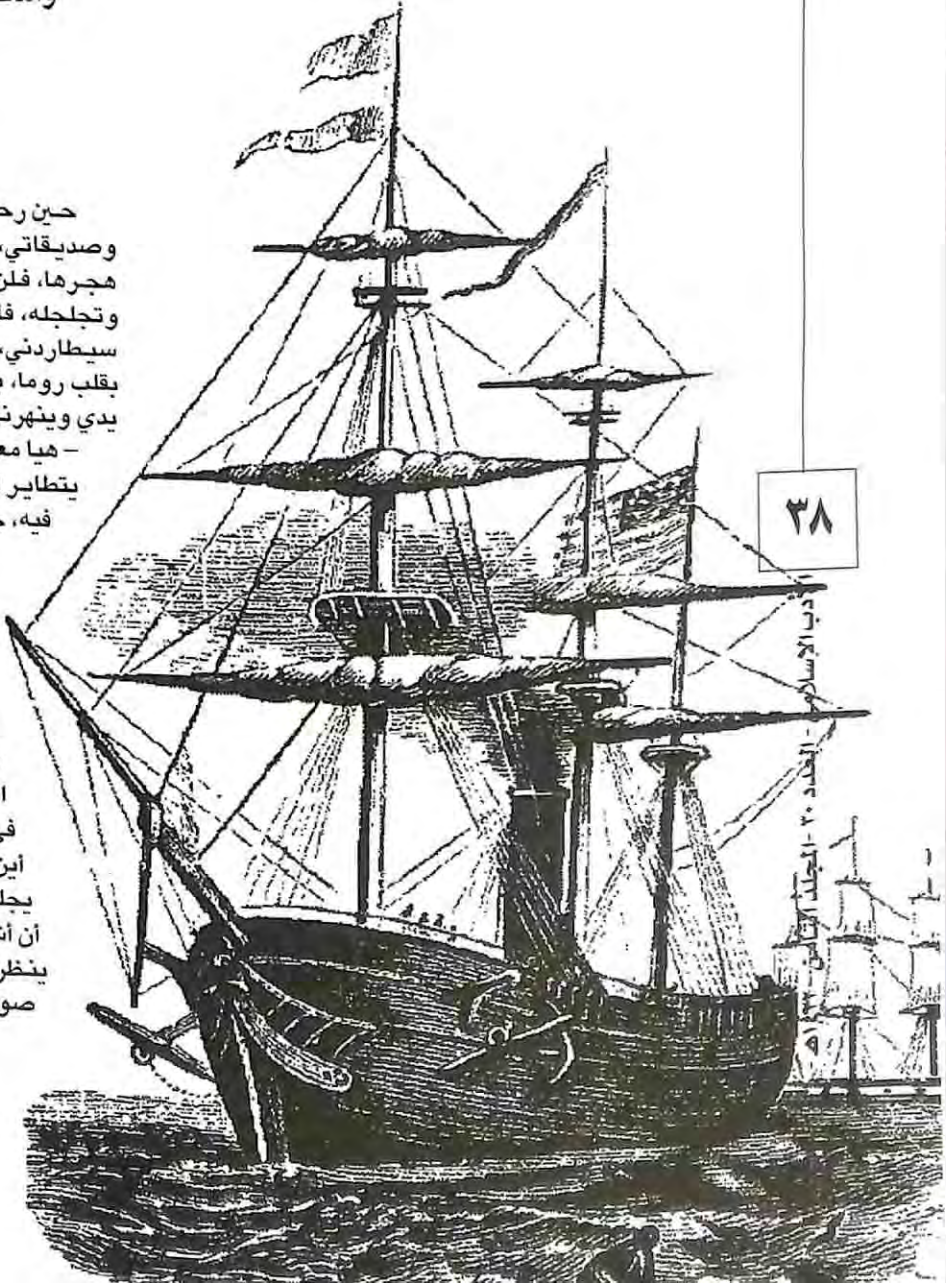
بقلم: نبيلة عزوزي
المغرب

حين رحيلي عنها، لوحت وبكيت، لم ألوح لأهلي
وصديقاتي، ولم أبك عليهم، لقد لوحت للمآذن وبكيت على
هجرها، فلن أسمع الأذان، تلك الألفاظ التي تقتحم كياني
وتجلجله، فاشعر بسعادة عميقة. ألتفت خلفي وكان أحدا ما
سيطاردني، ويسرح ذهني إلى الوراء، في محطة للحافلات
بقلب روما، بعد يوم متعب بكلية الطب، ينتشلني إيطالي من
يدي وينهرني:
- هيا معي.

يتطاير الشر من عينيه وتزكمني الرائحة المنبعثة من
فيه، جف حلقي وأبعدت يده بقوة، وصرخت فيه:
- لكني لا أعرفك، دعني وشأني.
شدني من شعري المنساب على ظهري،
وهمس:

- قلت هيا معي، وإلا أدقتك العذاب.
لا أدري كيف أفلت منه، وأركض كأرنب
يطارده ثعلب في غابة كثيفة، أتسلق حافلة وقد
أقلعت، أنتفض، جسمي كله ينتفض، يا إلهي،
الأسوار تلاحقني حتى في روما، التفت خلفي، إنه
في آخر مقعد في الحافلة، كيف سأفلت منه؟ وإلى
أين ستتوجه هذه الحافلة؟ وأستنجد بشرطي
يجلس أمامي.. تتوقف الحافلة، وأنزل وحدي، دون
أن أشكر الشرطي، ألتفت يمنة ويسرة، كل رجل أشقر
ينظر إلي أظنه يطاردني، أسرع الخطى، يصفعني
صوت أستاذي بالمدرسة الإيطالية بطنجة:

- سأعتنق الإسلام! أتعرفين لماذا أنستني؟
قالها بخبث مكر، ثم عقب قائلا:
- لآتزوج من أربع!
وقهقه، شعرت بالمهانة والاحتقار



والجبن والضعف. أول مرة في حياتي لم أجد تعقيباً، ولم أعرف بم أجيب.

ثم ربت على كتفي مداعباً:

- لقد قرأت معاني القرآن بالإيطالية، غداً سأهديك إياه لتتسلى به هذا السبت الممطر.

وتساءلت وحدي في صمت؟ أقرأ القرآن؟ تلك الكلمات التي يهمس بها أبي وهو على كرسيه يحرس مدخل إدارة المدرسة الإيطالية، لكنه لم يلقيني حرفاً منه. المصحف؟ ذلك الكتاب المرقوم غلافه بأحرف مذهبة، تنفض عنه أمي الغبار، وتعيده إلى مكانه، على رف عال يزين بهو منزلنا. كم تأقت نفسي إلى قراءته، لكنني لا أعرف العربية.

نفذت كلمات أستاذي إلى أعماقي، جرحتني جرحاً عميقاً، يسيل ماءً فراتاً على أرض تحن إلى ارتواء، يروي بذرة بداخلي. أغلى هدية تلقيتها في حياتي، انكبتت على القراءة ليل نهار، التقيت مع نفسي الظمأ الغربية عني، الغربية التي أرقنتني وأنا بين أناس كثر.. شعور مرير ينتابني أني لا أساوي شيئاً، أني مجرد كرة منتفخة بالهواء، ترتفع، وتنفجر حين تصطدم بأول شوكة، أخلق في الهواء، أهرب من نفسي! من تساؤلاتها! من تأملاتها، وتارة تهرب مني نفسي، أبحث عنها فلا أجدها، وتبحث عني فلا تجدني.

أتسلل من غرفتي، أهرب من كتبي ووحدتي، أمي في صلاتها ومناجاتها، أعرف جيداً إن انتهت ووجدتني أرقبها ستنهزني كعادتها دائماً:

«أمنيتنا أن تكوني طبيبة، فلا تضيعي وقتك، هيا إلى كتبك!».

وأتوقع داخل غرفتي، وتتوقع روعي الحيري بين أضلعي، يضيق صدري، وأكاد أختنق، وكأنني أصعد الفضاء، أطل من نافذتي، أفتحها، أسوار المدرسة عالية تنتهي بشطايا الزجاج والأسلاك الشائكة. أغمض عيني، الأسوار بداخلي، تسجن أنفاسي، أرتمي على سريري، أتناوم! أقوم إلى المرأة، أهدق في وجهي جيداً، أتضاحك بمرارة وأسأله: ترى من أنت؟ ومرة أخرى أعجز عن الإجابة، ويقطع السؤال أوصالي إرباً إرباً.

وأعود إلى النافذة، أتمعن النظر في الأسوار، بين هذه الأسوار ولدت، ووئدت، وبينها أتعلم.. ولا أعرف شيئاً عما يجري خارجها، سوى الأذان الذي يقتحمها ويقتحم الزجاج وأضلعي، فأصحو ويتأجج السؤال بداخلي: ترى من أنا؟!

الأسوار بداخلي تكتم أنفاسي: تعصر قلبي، وأهرول إلى كرة السلة ولا أدري إن كنت ألعب بالكرة وألقي بها في السلة، أم الكرة تلعب بي وتلقي بي في سلة الفراغ والحريرة، أرتطم بالأرض، ترتطم الكرة، تقفز، تحلق عالياً وتقفز السور، فرحت، ضحكت، وصحت، الكرة هربت مني، هربت بي بين الأسوار! ولكن سرعان ما حزنّت، تشابكت الحريرة أمامي بخيوطها الرفيعة لفت جسدي كله، كما تنسج

العنكبوت خيوطها حول فريستها..

ألقيت بجسدي المتعب على كرسي، وضعت كراستي أمامي، تحاشيت نظرات أستاذتي... ولكنها همست في أذني متسائلة:

- شروك منذ أسبوعين يشغلني، ما بك آنستي؟

ابتسمت ابتسامة باردة، لم أجبها، فحتماً لن تفهمني.

يدللني أستاذتي، وتغدق علي المدرسة الهدايا والجوائز والرحلات، إنني متفوقة في كل المواد، المديرية تعدني بمنحة إلى أعرق جامعة بروما، أه كل شيء في حياتي صار فارغاً بلا معنى، التفوق يعذبني، والإطراء يعذبني أكثر فيزداد إحساسي بحصار الأسوار لي، وتشتد حيرتي وشرودي. فتعقد المدرسة اجتماعاً طارئاً، ويزداد الاهتمام بي..

تحتضني المديرية قائلة:

- آنستي الجميلة كل فتاة مراهقة تمر بهذه الأزمة العابرة.

أحضانها، كلماتها نظراتها، أسوار أضخم وأعلى وأقسى من أسوار المدرسة، أسوار كتلك التي بين أضلعي.. أأبكي؟ وما يجدي الدمع بين الأسوار، ستهزأ مني نفسي. أأهرب؟ وكيف لي الهروب والأسوار تحاصرني، والباب الحديدي الضخم موحد، وأبي جالس خلفه يحرسه. رأسي بركان يغلي، يكاد ينفجر.. وأهرول إلى غرفتي بين أربعة جدران، أفتح معاني القرآن بالإيطالية.. ظمأى أشف من شلال متدفق... كل هذا يحفظه أبي بالعربية، ولم يلقيني حرفاً منه؟! يقطع صوت المديرية حبل تساؤلي، استأذنت، قدمت لي باقة ورد شاحبة مثل روعي، التفتت خلفها، يدخل شاب أسمر، تقدمه لي قائلة:

- يسرني أن أقدم لك الدكتور عبدالله، من قدماء تلاميذ المدرسة، لقد حظي بمنحة دراسية إلى إيطاليا. وهناك حصل على الدكتوراه في علم النفس.

شعرت ببعض الارتياح، الدكتور عبدالله قد يفهمني ويساعدني.. فرك الطبيب يديه، وكأنه يشعر ببرد قارس، وبتؤدة تشي عن ثقة عالية في نفسه خاطبني بالإيطالية.

- لقد اطلعتني الأخصائية الاجتماعية على ملفك، إنك متفوقة نشيطة، اجتماعية، رياضية، هذاجيد، فما الأمر؟ إنني هنا لأستمع إليك.

وأجبت على التو وكأنني سأخلص من الأسوار:

- يا دكتور إنني أشعر أني لا أساوي شيئاً.. أشعر بخواء داخلي، بغربة، بظلم شديد، بأسوار بداخلي، تفصلني عن هويتي، إنني أخجل أن أقول لك إنني لا أعرف شيئاً عن الإسلام سوى صور باهتة، حتى العربية لا أنطقها جيداً. لقد قرأت معاني القرآن بالإيطالية و...

وقاطعني الطبيب مبتسماً:

الدين شيء غيبي اعتنقي ما شئت من مبادئه، لكن عيشي حياتك كما تشائين أيضاً. فكم ستعيشين؟ وتنهدت ورددت: